﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾: هذه دعوة من الله ﷻ للإنسان، والمراد به هاهنا جنس الإنسان؛ لأن هذا لا يختص بالكافر، وإن كان الخطاب يتوجه بالدرجة الأولى إلى الكافر، المنكر للبعث، لكنه في الواقع يتناول المؤمن ليتعظ، ويتدبر. والإنسان بطبعه يتبلد حسه بالنسبة للأمور المألوفة، فلا يلقي لها بالاً، ولا يعتبر دوماً، ولا يتبصر بما يتكرر عليه ليل نهار، صباح مساء. فالله تعالى يصرف فكر الإنسان إلى أقرب الأشياء إليه، وهو هذا الطعام الذي يتناوله يومياً، ولم تحدثه نفسه أن يفكر في مصدره، وكيف سيق إليه؟

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾: وهذه القراءة هي المشهورة بفتح الهمزة ﴿ أَنَّا ﴾، وعلى هذا تكون الجملة بدل اشتمال لقوله ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ والمراد بصب الماء كون الله ﷻ أنزل المطر على الأرض غزيراً قوياً، متتابعاً .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ ﴾: و (ثم) ها هنا تفيد التراخي؛ لأن الإنبات لا يحصل مباشرة، بل يقع في جوف الأرض من التكونات العضوية لهذه النباتات ما يستغرق فترة طالت، أو قص ـرت. ومعنى ﴿ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أن الله سبحانه وتعالى فتق وجه الأرض، فأخرج هذا النبات. فتجد النبتة تشق الصعيد، أو تبحث من بين الصخور الصلبة عن شق تخرج منه، حتى إذا قويت واشتد عودها فلقت الصخر، بقدرة الله ﷻ.

﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ﴾: أي في هذه الأرض، والحب: اسم جنس لجميع الحبوب، فيشمل البر، والشعير، والذرة، والدخن، وغير ذلك من أنواع الحبوب .

﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ ﴾: العنب معروف عند من نزل فيهم القرآن، فإن الحب قوتهم، والعنب فاكهتهم .

وأما (القضب) فالتفسير العام لهذه اللفظة أنه كل ما يقضب من النبات، فيجز، فينبت مرة أخرى. ومعنى أنه يقضب من القضب وهو القبض، وجذرهما واحد. وقد اختلفت عبارات المفسرين في معنى القضب، فقيل في معناه: أنها الرطبة يعني أي نبت رطب، وقيل في معناه: العلف، وتحديداً القت، ويلحق به على هذا جميع أنواع البقوليات التي تنبت على وجه الأرض .

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾: الزيتون معروف، وقد ذكره الله في غير ما موضع في كتابه، وهو شجرة كريمة، ويخرج منه زيت مبارك﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾[المؤمنون:٢٠]، والنخل كذلك معروف، وهو الشجرة الرئيسية، والثمرة الأساسية التي يتفكهون بها و يقتاتون منها، ولا ريب أنها من أكرم أنواع الأشجار، بل هي أكرمها، وأعظمها فائدة، ولهذا شبه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة، وألغز أصحابه يوماً، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يَوْمًا لأَصْحَابِهِ "أَخْبِرُونِى عَنْ شَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ ". فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَذْكُرُونَ شَجَرًا مِنْ شَجَرِ الْبَوَادِى. قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَأُلْقِىَ فِى نَفْسِى أَوْ رُوعِىَ أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَجَعَلْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهَا فَإِذَا أَسْنَانُ الْقَوْمِ فَأَهَابُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَلَمَّا سَكَتُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "هِىَ النَّخْلَةُ" فَحَدَّثْتُ بِهِ عُمَرَ فَقَالَ لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا لَكَانَ أَحَبَّ إِلَىَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا) رواه البخاري ومسلم[1].

والمقصود أن النخل من أكرم الأشجار، وأعظمها بركة. وقد ذكره الله ﷻ في مواضع كثيرة من كتابه .

﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾: الحدائق البساتين ؛ لأنها تحدق بمن كان بداخلها لكثافتها، والتفاف أشجارها. ومعنى ﴿ غُلْبًا ﴾ أي غلاظاً، وقيل عظيمة، وقيل كراماً، والحق أنه يشمل ذلك كله؛ بمعنى أن هذه الحدائق تحتوي على أشجار ضخمة، عظام، كرام، ولهذا فسرت بأنها النخل الكرام، فمعنى (الغلب) ما يدل على العظمة، والمتانة، والقوة، ونحو ذلك.

﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾: (الفاكهة) ما يتفكه به الإنسان من أنواع الثمار، و(الأب) قيل: إنه النبات عموماً، وقيل إنه ما يختص بطعام الحيوان. وكأن هذه اللفظة (أب) مأخوذة من (آب)، فالنبات الذي يحصد،

---

[1] صحيح البخاري(6122)، صحيح مسلم (2811) واللفظ له.

ثم يخرج يقال له (أب) من ا لأوب، وهو العَود. فيشمل الأعلاف، وما شابهها. فكأنه أراد التقسيم : (الفاكهة) للإنسان ، و (الأب) للحيوان. وأما ما يروى عن أبي بكر الصديق، ﷺ، أنه قال لما سئل عن (الأب): (أي سماء تظلني وأي أرض تقلني أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم) [٢]، فهو من حيث السند منقطع، ومن حيث المعنى صحيح؛ فإن الإنسان لا يحل له أن يقول في كتاب الله بمجرد الرأي، بل لابد أن يصدر في ذلك عن أثارة من علم ؛ لأن القول على الله عظيم، وقد كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يُسألون عن الحديث فيحدثون، فإذا سئلوا عن تفسير القرآن أمسكوا، تعظيماً للمقام؛ لأنهم يرون أن هذا قول على الله ﷻ ، وتوقيع عن رب العالمين، فكانوا يتحرجون غاية الحرج، أن يقولوا في كتاب الله مالا يعلمون. فالواجب على الإنسان ألا يخوض فيما لا يعلم .

ويروى عن أنس أن عمر قال على المنبر: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ثم قال : هذا الفاكهة قد عرفناها فما الاب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر ! [٣].

وقد يكون هذا مشكلاً، فقد يفهم بعض الناس من هذا الأثر، وهو صحيح، أن الإنسان لا يسأل عما خفي عليه، لكن لا يظهر أن هذا هو مراد عمر، ﷺ، وإنما كره أن يقول فيه بلا بينة، فعد ذلك تكلفاً، أن يستنبط شيئاً بلا جزم ولا يقين. وربما كان هذا اللفظ (الأب) ليس من لغة قريش، فخفي على عمر، ﷺ ؛ فإن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فبعض ألفاظه ومفرداته، قد لا تكون من لغة قريش، وإنما من لغة بعض أحياء العرب، فخفي على عمر، فنهى نفسه أن يتعجل قولاً بلا جزم ولا بينة، فقال: إن هذا لهو التكلف. ولكن هذا لا يعني أن لا يسأل الإنسان عن معاني ما أنزل الله تعالى على نبيه، لأن النبيﷺ ما ترك شاذة، ولا فاذة، إلا بينها، كما قال تعالى﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾[النحل٦٤] ، وقال﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[محمد٢٤]، وقال﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص٢٩]، وقال﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الزخرف٣]، وقال:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾[يوسف٢]، فلابد من تعقل القرآن جميعه، ومعرفة مفرداته،

---

[٢] مصنف ابن أبي شيبة (179/7)، الدر المنثور (251/15) طبعة مركز هجر بمصر. قال ابن حجر في الفتح (271/13) هذا منقطع بين النخعي والصديق.

[٣] مصنف ابن أبي شيبه (180/7)، المستدرك للحاكم (559/2) وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي بشعب الإيمان (2281).

وتراكيبه، ولكن هذا لا يكون بمجرد الرأي المحض، لابد من تفسيره بالمأثور، وقد بين ابن عباس، رضي الله عنهما أن تفسير القرآن على أربعة أضرب:

الوجه الأول: تعرفه العرب من لغتها: مثل معرفة (غَاسِقٍ)، و (وَقَبَ)، و (الرَّقِيمِ)، و (الأب) ونحو ذلك، فهذا يطلب من علوم العربية، وقد كانوا ينشدون الأشعار، ويحفظون الشواهد، التي يفسر بها القرآن، وقد جرى بين ابن عباس، رضي الله عنهما، ونافع بن الأزرق سجال في هذا، وكان ابن عباس يستدل على معنى كل لفظة، ببيت من شعر العرب .

الوجه الثاني: ما لا يعذر أحد بجهالته: وهو المعلوم من الدين بالضرورة. فإذا قال الله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، فليس لقائل أن يقول: المقصود بالصلاة هنا الدعاء. لأن الشرع أتى بمعنى اصطلاحي للصلاة، وأنها عبادة ذات أقوال، وأفعال، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم. هكذا.

الوجه الثالث : ما يعلمه العلماء: وهو الذي يحتاج إلى طلب، ورواية، ودراية؛ كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والخاص والعام.

الوجه الرابع : مالا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علمه فهو كاذب: والمقصود به الكيفيات، وحقائق المغيبات، فهذا لا يمكن أن يعلمه إلا الله. فإذا أخبر سبحانه وتعالى﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فإننا نثبت الاستواء، ونثبت معناه؛ أنه العلو، لكننا لا ندرك كيفيته، فكيفيته لا يعلمها إلا الله. الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وإذا أخبر الله تعالى، عما يقع في اليوم الآخر؛ من النفخ في الصور، والبعث، والنشور، والحشر، والصراط، والميزان، فإننا نعلم هذه المعاني من حيث اللغة ، لكن لا ندرك الكيفيات، فهذا مما استأثر به الله تعالى بعلمه، أي بعلم كيفيته .

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾: ﴿مَتَٰعًا﴾ أي منفعة مؤقتة؛ لأن المتاع يدل على النفع، ويدل على الاستمتاع. والاستمتاع لابد أن يكون موقوتاً. فهذه المذكورات فيها منفعة لكم، وفيها منفعة لأنعامكم. ثم لاحظ أن هذه الأنعام تحيل ذلك إلى طعام؛ فيؤخذ منها اللبن، ويؤخذ منها الزبد، والسمن، واللحم. إذاً هي أيضاً تعود إلى الطعام، فتدخل في عموم قوله﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾

.

فهذه الجولة في هذه المكونات الغذائية، التي ينبتها الله تعالى على وجه الأرض، ويتناولها الناس، تجعل الإنسان في موقف المتدبر لطعامه، من حين أنزل الله المطر من السماء، إلى أن وصلت إلى فيه. هذه المراحل تستدعي منه النظر، والاعتبار، والتفكر.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾ ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ اسم من أسماء الساعة. وسميت بذلك لأنها تصخ الآذان لشدة صوتها، فهي صيحة مرعبة، مدوية.

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ ﴾: هذا وصف لتفاصيل القيامة، وهو مشهد مرعب، مفزع،هرب المرء من أقرب الناس إليه، من يتمنى أن يفديهم في دنياه، وأن يدفع عنهم الأذى، ويتمنى أن يصيبه دونهم ، فيوم القيامة، يفو منهم، وينفض يديه منهم، لا أحد ينعطف على أحد، ولا أحد يلتفت إلى أحد. حتى أخيه الذي درج معه في مراتع الصبا، لا يباليه يوم القيامة، ولا يلتفت إليه .

﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ ﴾: سببا وجوده في هذه الحياة، أحن الناس عليه، وأشفقهم به، يفر منهم. يسألانه حسنة واحدة، فلا يبذلها لهما، يقول نفسي! نفسي! النجاء! النجاء!

﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾: الصاحبة: هي الزوجة، ألصق الناس به، والتي جعل الله بينه وبينها، في هذه الدنيا مودة، ورحمة وسكنا، يوم القيامة، يفر منها، وإبنه فلذة كبده، وبضعة منه، يفر منه يوم القيامة .

لا ريب أن هذا يدل على هول المطلع، وعظم الموقف، وأن الإنسان ما كان ليبدر منه هذا التنصل من أقرب الناس إليه، إلا لشدة الحال. ولو تأملت في حياتك الدنيا، لوجدت أنك لو رأيت بعض هؤلاء الأحبة يغرق لألقيت نفسك عليه، لتستنقذه، وربما تهلك معه، وإذا وجدته يحترق، ربما ألقيت نفسك عليه، وإذا فقدته لحقك حزن عظيم، وهم، واكتئاب. لكن تأمل ! يوم القيامة، لا مكان لهذه المشاعر، لأن المرء يدرك أن أمامه مصير مستديم، وهول عظيم، يريد أن ينجو بنفسه، يريد أن ينقذ ذاته، لا يلوي على أحد .

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾: يعني يغنيه عن النظر إلى غيره

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾: في ذلك الموقف العصيب يتمايز الناس؛ فمن خافه في الدنيا، أمنه في الآخرة، ومن أمنه في الدنيا، أخافه في الآخرة. وإنما عبر الله تعالى عن الذوات بالوجوه، لأن الوجه هو مرآة الإنسان، بل هو مرآة القلب فتظهر انفعالات القلب على الوجه، فالوجه صفحة ظاهرة، تنبيء خبيئة باطنة. ومعنى ﴿ مُّسْفِرَةٌ ﴾ مضيئة مستنيرة، ووصف الوجوه بأنها ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ لأن الضحك يرى في الوجه، والضحك يكون من فرح، ومن أنس، ومن موعود حسن، ومعنى ﴿ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾: أي فرحة، متفائلة، لما تنتظر ما عند الله ﷻ من النعيم، والفضل. جعلنا الله وإياكم منهم .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾: كالحةٌ مظلمةٌ .

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾: أي سواد، وظلمة، كما قال الله في الآية الأخرى: ﴿ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾: جمعوا بين فسادين؛ بين فساد القلب، وفساد العمل، فساد القلب دل عليه وصفها بالكفر، وفساد العمل دل عليه وصفها بالفجور.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: فضيلة التفكر في نعم الله وآلائه، والدعوة إلى ذلك.

الفائدة الثانية: بديع صنع الله في النفس، والآفاق.

الفائدة الثالثة: كرم هذه الثمرات المذكورات، والنباتات، لأن الله تعالى ما خصها بالذكر إلا لمزيد مزيتها.

الفائدة الرابعة: وجوب شكر المنعم وعبادته ؛ لأنه قال ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ .

الفائدة الخامسة: عظم أمر الساعة، وهول أحوال يوم القيامة.

الفائدة السادسة: تبرؤ الإنسان من أقرب الناس إليه يوم القيامة.

الفائدة السابعة: أن الجزاء من جنس العمل.

الفائدة الثامنة: أن الكفر كفران؛ كفر اعتقادي، وكفر عملي ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾، لأن الموصوف.